هكذا ينبغى أن تكون .. والآن لنبدأ من جديد .

وكان للشيخ قفة ابن فى الثانية عشرة من عمره ، وكان هو الذى بقى له من أكثر من عشرة أبناء جاء بهم الى الدنيا ، واختطفهم الموت منه واحدا بعد واحد . وشاءت المقادير أن يلحق هذا الفتى بإخوته . ويذهب فى سبيلهم ، وسمعنا بما أصابه ، فقلنا نذهب لتعزيته . وفى عصر اليوم الذى دفن فيه الغلام قصدنا اليه ، وفى ظننا أن نجد سرادقا أو نحو ذلك لاستقبال المعزين ، ولكنا وجدنا الشيخ قفة واقفا فى دكانه عارى الرأس على عادته . وليس على وجهه ما يدل على أنه احتسب ابنه العاشر أو الحادى عشر فى صبيحة ذلك اليوم ، فدهشنا ، ولكننا عدنا فقلنا أحسن والله الرجل ، فإن إقامة المآتم عمل لا جدوى منه ، وأقبلنا عليه نصافحه ونعزيه ، فقدم لنا الكراسى وصنع لنا القهوة ، ثم جلس قبالتنا على دكة وفى يمناه فنجانه يرتشف منه القهوة ، وهو يقول بلهجة الجد : هل تعرفون رجال حاتا باتا ؟

فنظر بعضنا الى بعض ، ولم يفهم أحد ماذا يعنى «برجال حاتا باتا» ، وانعقدت ألسنتنا فى حلوقنا ، فلم نجب ، وشعرنا بشىء من الحرج ، ولم ينتظر هو جوابنا فضحك ضحكة مكتومة ارتجت لها انحاؤه ـ وكان بدينا ـ وسالت قطرات من الفنجان فمد ذراعه بها ليقصيها عن ثيابه ، وقال :

خرجنا بالولد وأمامه هؤلاء الفقهاء الذين لايستطيع المرء أن يتبين ما يقولون . ومن أجل هذا أسميتهم رجال «حاتا باتا» لأن هذا هو الصوت الذى يخلص الى أذنى مما يرفعون به عقائرهم فى الجنائز . ألم تركبوا القطار قط ؟ إنه يخرج من المحطة على مهل حتى إذا خلفها وراءه زاد سرعته شيئا فشيئا ، ثم ينطلق على وجهه ، كذاك كان يفعل رجال حاتا باتا اليوم . بدأوا يمشون أول الأمر على مهل ، ويطلقون هذا الصوت فى تؤدة وأناة ، فلما جاوزنا الطرق العامرة أسرعت أرجلهم ولاحقتهم حناجرهم .

وقد يقال إن الشيخ قفة ليس إلا الإنسان يحارب (سلطة) غامضة . وهو يعرف الطريق الى فهم لغات كثيرة . ولا شىء يشذ عنه سوى صوت واحد هو صوت الموت . إنه يعرفه ولكنه يتعالى عليه . والشيخ قفة أو الإنسان صامد عارى الرأس يتحدى فى بساطة الشعور بالفقد والاغتراب . حاول المازنى بأسلوب رفيع أن ينظر الى الموت نظرة لاتخلو آخر الأمر من الازدراء الغامض . الإنسان مزاج من البطولة والبؤس . والتأليف بين هذين الجانبين يحتاج الى روح مرحة . واستطاع المازنى أن